

محتويات المحاضرة

الأدب المغربي بين التقليد والتجديد
غرض المدح في العصرين المرابطي والموحدي

التقليد والاحتذاء في
المدح السياسي

«غرض المدح» بين
التقليد والتجديد

مفهوم التقليد
والتجديد عموما

التجديد والتمايز في
المدائح النبوية

أهداف المحاضرة:

نحدد الأهداف الأساسية لهذه المحاضرة، في:

- التعرف على بنيات «التقليد والتجديد» من حيث المفهوم والاشتغال.
- تحديد بعض مظاهر «التقليد والاحتذاء» في الأدب المغربي، من خلال غرض المدح على عهد المرابطين والموحدين.
- الوقوف عند بعض مظاهر «التجديد والتميز» على مستوى المدائح النبوية.

مفهوم التقليد

- في اللغة .القلْد: جمع .الماء في الشيء، وكلُّ ما لُوي على شيء .فقد قُلِد، والقِلْد: الرفقة .من القوم والجماعة منهم. ف"التقليد" المحافظة على الشيء، وما يحيط بأي شيء.
- وفي الاصطلاح، .التقليد .عموما .عند .ابن .علي .الرجاني في .التعريفات: هو . "اتباعُ الإنسانِ غيره فيما يقول أو يفعل... كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه»
- وفي .الأدب .يشمل .التقليدُ .محاكاةَ كلِّ ما .تواضع .عليه .الأدباء .قديمًا .ففي .التقليد .محافظة واحتذاء، وفي الشعر هو تمسك بأغراض القصيد وأبنيته الفنية النمطية...

مفهوم التجديد

□ في اللغة "رجل جديد: إذا كان ذا حظ من الرزق... والجدة: نقيض البلى، والجديد: ما لا عهد لك به، والجد: الاجتهاد في الأمور".

□ أما في الاصطلاح فهو "إتيان بما ليس شائعا أو مألوفا". والتجديد موقف من الفن والحياة والوجود...

□ وفي ضوء هذه التحديدات سنتناول نزوع الشعر المغربي لتقليد الشعر العربي عموما والتماثل معه، وسعي الشعراء للتجديد والتميز في بنيات إبداعية مختلفة...

غرض المدح بين التقليد والتجديد

تعريف المدح

□ المدح - اسم يدل على وصف محاسن بكلام جميل، وهو مرتبط بالثناء والإكبار والاحترام، وموجه إلى مستقبل خاص. "فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر. إعظاما لها" (العمدة، ابن رشيق، 1/809)، أو طلبا للعتاء وانتظارا للجزاء، في إطار التكسب بالشعر.

□ ويكاد المدح يستوعب باقي الأغراض الأخرى، حتى إن هناك من يعتبره أصلا لها، فالغزل بنية رئيسة في مقدمات قصائده، والهجاء سلب صفات المدح عن المهجو، والفخر مدح الذات والثناء عليها، والوصف حاضر في كل مقاطع القصيد، بينما الرثاء هو مدح لهالك...

التقليد والاحتذاء في المديح السياسي

- وقد انتشر هذا الغرض انتشارا واسعا في البيئة المغربية، وخصوصا مديح ذوي السلطان والنفوذ (المديح السياسي أو المديح السلطاني).
- فقد اشتهرت وصية أبي تمام للبحتري، كما وضع ابن قتيبة خطة محددة لمعمارية القصيدة المدحية. فضلا عن أن قدامة بن جعفر وضع أصولا أربعة للمدح.
- وقد حذا شعراء المغرب حذو الشعراء العرب في هذه البنيات النمطية الرائجة في الشعر العربي، إلى جانب نزوعهم الثقافية الذاتية.

فلا بن حَبُّوس يمدح عبد المؤمن:

ولا بن حَبُّوس يمدح عبد المؤمن وقد حلَّ بالرباط :

أَلَا أَتِيْهَذَا الْبَحْرُ جَاوَرَكُ الْبَحْرُ وَخِيَمٌ فِي أَرْجَائِكَ النِّفْعُ وَالضَّرُّ
وَجَاشَ عَلَى أُمُوَاهِكَ الْعَقْلُ وَالْحِجَا وَفَاضَ عَلَى أَعْطَافِكَ النَّهْيُ وَالْأَمْرُ
وَسَالَ عَلَيْكَ الْبَرُّ خِيَلًا كَمَا تُتَاهَا إِذَا حَاوَلْتَ غَزْوًا فَقَدْ وَجِبَ النَّصْرُ
لَعَلَّكَ يُطْغِيكَ اشْتِرَاكَ سَمْعَتَهُ فَذَلِكَ بِحَرٍّ لَا يُشَاكِلُهُ بَحْرُ

حيث - المدح - بالصفات - النمطية - المعروفة - في - الشعر - العربي ، - وخصوصا - الكرم - والعقل
والحكمة - والشجاعة ، - مع - التركيز - على - "الغزو" - اعتبارا - لمكانة - المغرب - والأندلس - في - جوار
النصارى ، والحروب الدائمة بينهما .

ولأبي العباس الجرّاوي يهنئ يوسف بن عبد المؤمن بفتح :

عن أمرِكُم يتصرّف الثقلان
وبما يسوء عدوّكُم ويسرّكُم
جاهدتُم في الله حقّ جهاده
وتركتُم أرض العدا وقلوبهم
وغزاهم الدين الحنيفي الذي
كتب الإله لكم فتوحاً في العدا
هذا مقام المصطفى يا فوز من
من يعرف الرحمن حقاً يعترف
وبنصرِكُم يتعاقب الملّوان
تتحرك الأفلاك في الدوران
ونهضتم بحماية الإيمان
في غاية الرّجفات والخفقان
كتب الظهور له على الأديان
هذا لها وسواه كالعنوان
حاز النّياية فيه عن حسّان
بحقوقه لخليفة الرحمن

□ وعموما، فشعراء المغرب كانوا يقتفون آثار من قبلهم من الشعراء: (قيمة الشجاعة)، (قيمة العقل)، (قيمة العدل)، وهي صفات دائرة في الشعر العربي راسخة في بنياته النمطية.

□ أما التجديد فيصرف إلى البنيات الصغرى، المتأثرة بالسياقات الثقافية المنبثقة عن الموقع الجغرافي للمغرب، والذي يجعلهما في مواجهة مستمرة داخليا وخارجيا.

□ ففي خلاصة هذا العنصر فقد ارتبط غرض المدح، بالقصيدة المادحة في الشعر العربي، وبنياتها النمطية الأساسية، فأخذ منها توجهاتها واختياراتها الفنية الكبرى، وأثناء تشغيلها من طرف الشعراء جاءت مصبوغة ببعض خصوصيات البيئة المغربية والأندلسية، إلا أن مدى هذه الخصوصيات كان محدودا جدا في مديح السلاطين والأمراء.

إننا مهما تملكنا الأريحية الأدبية وأخذ منا الجمال الفني واستحوذ علينا الخيال
الشعري ، لا يبلغ بنا ذلك إلى حد إهمال شخصيتنا والتهاون في حفظ كياننا ،
فنفضل قول بيت من الشعر على إنقاذ مملكة من أزهى ممالك العرب والاسلام
وأوسعها وأغناها وأعظمها حضارةً وعمراناً ورقياً !..

وإن ننسَ لا ننسَ كتاب صفوة الأدب ، وديوان العرب ، الذي ألّفه الشاعر أبو العباس الجرجاني على وضع كتاب الحماسة لأبي تمام وضمّنه مختاراتٍ من الشعر العربي في 'مختلف أبوابه' ، ولم يغفل أن يضمّ إليه من شعر الأندلسيين والأفارقة ما جعله يمتاز عن حماسة أبي تمام . ويُعرف بالحماسة المغربية . وقد وصلنا مختصره الذي اطلعنا منه على غزارة حفظ مؤلفه و'حسن صنيعه' . وبالجملة فإن نهضة علوم الأدب في هذا العصر كانت شاملةً . وما يمنعنا من تتبع مظاهرها إلا 'خشية' التطويل ، ويأتي مزيد بيان لها في الكلام على الحياة الأدبية .

المدائح النبوية نموذجاً للتجديد:

□ كان الإبداع في مدح الرسول في الغرب الإسلامي أكثر نشاطاً، وكان الشعراء "أكثر اهتماماً به.

□ أسباب نشاط هذه الظاهرة:

- مكانة الرسول (ص) في النفوس، والتعلق به ومحبته، والتسلي بذكر شمائله.
- بُعد المغاربة عن المزارات في مكة والمدينة.
- الشوق والحنين إلى تلك المنازل.
- دور الاتجاه الفقهي للمرابطين والموحدين، والشرف الذي قامت عليه بعض الدول الأخرى.
- اتساع ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف منذ الفترة المرينية.
- الهجومات المتواصلة على الأندلس، وحدودها الشمالية.
- انتشار الزهد والتصوف، وتمكن التوجهات الشرعية من عموم الأدباء والعلماء.

ومن الشعراء الذين برعوا في المديح النبوي واستحدثوا فيه فنونا شتى، ميمون الخطابي:

ولميمون الخطابي في مدح سيد الوجود :

حَقِيقٌ عَلَيْنَا أَنْ نُجِيبَ الْمَعَالِيَا لِنُفْنِيَا فِي مَدْحِ الْحَبِيبِ الْمَعَانِيَا
وَنَجْمَعُ أَشْتَاتَ الْأَعَارِضِ حِسْبَةً^١

وَنَحْشُرُ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ الْقَوَافِيَا

وَنَقْتَدُّ^٢ لِلْأَشْعَارِ كُلِّ كَتِيبَةٍ لِنَضُرَّ الْهُدَى وَالْدِّينَ تُرْدَى الْأَعَادِيَا
فَأَلْسَنُ أَرْبَابِ الْبَيَانِ صَوَارِمُ مَضَارِبُهَا تُنْسِي السُّيُوفَ الْمَوَاضِيَا

رَسُولٌ بَرَّاهُ اللَّهُ مِنْ صَفْوِ نُورِهِ
وَمَا زَالَ ذَاكَ النُّورُ مِنْ عَهْدِ آدَمَ
ثَوَى فِي ظُهُورِ الطَّيِّبِينَ يَصُونُهُ
وَحَصَّ بُطُونَ الطَّيِّبَاتِ لِحَمْلِهِ
بِهِ وَزَنَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ
وَأَنْقَذَنَا مِنْ نَارِهِ بِظُهُورِهِ
وَأَدَمُ لَمَّا خَافَ يُزْرِي بِذَنْبِهِ
فَتَابَ عَلَيْهِ اللَّهُ لَمَّا دَعَا بِهِ

وَأَلْبَسَهُ بُرْدًا مِنَ النُّورِ ضَافِيَا
يُنِيرُ بِهِ اللَّهُ الْعُصُورَ الْخَوَالِيَا
وَدَيْعَةَ سِرِّ صَارَ بِالْبَعْثِ فَاشِيَا
لِيَحْمِلَ فَرْعًا لِلْسِّيَادَةِ زَاكِيَا
فَأَلْفَاهُ فِيهِمْ رَاجِحَ الْوِزْنِ وَافِيَا
وَلَوْلَاهُ كَانَ الْكُلُّ بِالْكَفْرِ صَالِيَا
تَوَسَّلَ بِالْمُخْتَارِ لِلَّهِ دَاعِيَا
وَأَدْنَاهُ مِنْهُ بَعْدَ مَا كَانَ نَائِيَا

❑ بعد تفكيك النصوص والبنىات الصغرى المكونة للقصائد. نلفي:

❑ هناك أبعادا مستجدة ومستحدثة لصفات الكرم والشجاعة والعقل والحكمة والنور.

❑ التأثير الواضح بالتصوف الإسلامي المميز للبيئة الثقافية المغربية والأندلسية.

❑ التوظيف الواسع في هذا النوع من القصائد للسيرة النبوية.

❑ التأثير بالبيئة العلمية المغرقة في الثقافة الفقهية، وبالبعد الجغرافي الذي يدفع إلى الحنين والبكاء.

❑ كل هذا جعل المدائح النبوية ذات أبعاد عاطفية وأخلاقية وتاريخية وعلمية. وهو ما سيُتَّوَجَّع بالقصائد التي عرفت بالمولديات، والتي شهدت انتشارها الواسع في العصر السعدي وما بعده.

المولديات

□ هي قصائد في المديح النبوي، تجمع بين مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ومدح السلطان، وغالبا ما تلقى بين يدي الممدوح، بمناسبة المولد النبوي الشريف.

□ فقد كانت "المولديات" إذن نتاجا لواقع سياسي واجتماعي وثقافي متميز، ارتبط أساسا بظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وبالتعلق بالرسول ص، وهي ظاهرة يستفيد منها السياسيون والشعراء...

□ حيث يسعى الشاعر إلى أن يرسم للممدوح صورة نموذجية للخليفة المجاهد في زمن الأزمات والحروب، باعتباره امتدادا للرسول صلى الله عليه وسلم في الواقع كما هو امتداد له في القصيد.

بناء المولديات

- الغزل وإظهار الشوق والمحبة	- المقدمة النسيبية	- المكون الأول
- الطلل وذكر الأماكن الحجازية		
- الرحلة والراحلة		
- الشيب والشباب وشكوى الدهر		
- الصفات البدنية	- مدح الرسول صلى الله عليه وسلم	- المكون الثاني
- الصفات النفسية		
- الصفات البدنية	- مدح السلطان	- المكون الثالث
- الصفات النفسية		
- التصليات	- الاختتام	- المكون الرابع
- البطولة الشعرية		
- (افتخار الشاعر بشعره)		
- الدعاء		

□ وقد عُرِفَت هذه -الظاهرة- منذ -العصر- المريني، لكنها -شهدت- انتشاراً واسعاً في -العصر- السعدي وخصوصاً على عهد -المنصور- الذهبي، في -الشعر- الفصيح -كما- في -الملحون-. وقد اشتهر في هذا المجال مولديات:

□ العصر المريني: ابن عبد المنان ولسان الدين ابن الخطيب السلماني.

□ العصر -السعدي-: عبد -العزیز- الفشتالي، وعلي -بن- منصور الشیْظمي ومحمد -بن- علي الهوزالي.

□ العصر -العلوي-: محمد -المرابط- الدلائي، ومحمد -ابن- زاكور، وحمدون بن -الحاج-، وسليمان الحوات.

*أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان الخزرجي الأنصاري (- 792 هـ) من كتاب الدولة
المرينية. كان أثيرا لدى السلطان أبي عنان المريني:

➤ هل العقيق وما ضمّت أجارعه ... كما عهدناه أم أقوت مرابعه

➤ وهل تغيّر بان الحيّ بعد نوى ... أهليه أم روّضت خصبا أجارعه

➤ ديار سلمى سقاها من ديار هوى ... من صيّب الغيث هاميه وهامعه

➤ قفا بها إنّ عهدا للطلّول على ... دمعي السّكيب بأن تجري دوافعه

➤ (...) وأيّ واش به في الحبّ يكذبه ... سهاده أم ضناه أم مدامعه؟

➤ (...) هل تعلمان له راق فيطمع في ... براء أم الحبّ داء عزّ دافعه؟

➤ أو ملجأ غير أعلى الخلق منزلة ... يوم الحساب وقد راعت روائعه

➤ خير البرية أولاهها وآخرها ... وحائز الفضل دانيه وشاسعه

- يا ليلةً أسفرت عنه ظفرتُ علّا ... بالفخر قد ملأ الأقطار شائعهُ
- ضاءت لمولده الآفاق واتّضحت ... سبل الرّشاد بما جلّت نواصعه
- أعلّل النّفس تعلّلا بقربك لـ ... كنيّ أرى القرب قد سدّت ذرائعه!
- ولي على الدّهر دين لثمّ تربك لـ ... كنّ التّقاضي تلويه موانعه
- ما كنت أمله لولا الخليفة لا ... زالت تؤمّل للحسنى صنائعه
- من عصبه أثّلوا المجد التّليد علا ... ودوّخوا الكفر فاستخزت بواقعه
- (...)أبا عنان لك الخيرات من ملك ... عاصيه قد خاب لما فاز طائعه
- (...)وهاكها من خبايا الدّهر قافية ... تزهى على الدّر قد صفت رصائعه
- أهداكها فائق الإبداع باسمك ما ... رقت مباديه أورقت مقاطعه

□ ونمثل في هذا -السياق بمولدية -شاعر-المنصور -الذهبي -ومؤرخ -الدولة -السعدية -عبد -العزیز
الفشتالي، الذي نظم قصيدة مولدية من ستة وتسعين بيتا، افتتحها بإظهار لوعة الشوق وعمق
المحبة:

هُم سَلَبُونِي الصَّبْرَ وَالصَّبْرُ مِنْ شَانِي *** وَهُمْ حَرَمُوا مِنْ لَذَّةِ الْغُمُضِ أَجْفَانِي
وَهُمْ أَخَفَرُوا فِي مُهْجَتِي ذِمَمَ الْهَوَى *** فَلَمْ يَثْنِهِمْ عَنْ سَفَكِهَا حُبِّي الْجَانِي
□ ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الرحلة والراحلة:

قِفِ الْعَيْسَ وَإِسْأَلِ رَبِّعَهُمْ أَيَّةً مَضَوْا *** أَلِلْجَزْعِ سَارُوا مُدْلِجِينَ أُمَ الْبَانِ
□ ليتخلص بعد ذلك إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

وَعَرَّسَ فِيهَا لِلنُّبُوَّةِ مَوَكِبٌ *** هُوَ الْبَحْرُ طَامٍ فَوْقَ هَضْبٍ وَغَيْطَانِ
مُحَمَّدُ خَيْرُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرِهَا *** وَسَيِّدُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجَانِ

□ وبعد ذلك ينتقل إلى السلطان المنصور الذهبي:

إِذَا نَدَّ عَنْ زُورَارِكَ الْبَاسُ وَالْعَنَا*** فَجُودُ ابْنِكَ الْمَنْصُورِ أَحْمَدَ أَغْنَانِي
مُتَوَجِّجُ أَمْلَاكِ الزَّمَانِ وَإِنْ سَطَا*** أَحَلَّ سُيُوفاً فِي مَعَاقِدِ تِيْجَانِ

□ ويختتم بالدعاء والفخر:

أَتَتَكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَأَنَّهَا*** لَطَائِمُ مِسْكِ أَوْ خَمَائِلُ بُسْتَانِ
وَلَا زِلْتَ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزِ مُؤَزَّراً*** تُقَادُ لَكَ الْأَمْلَاكُ فِي زِيِّ عُبْدَانِ

وخلاصة القول؛ فإذا كان التقليد مرادفا للمحافظة والاحتذاء، وإذا كان التجديد مرادفا للاجتهاد والإتيان بالجديد؛ فإنهما يظهران معا بوضوح في "غرض المدح" في شعر المغاربة بأنماطه المختلفة. فقد استجاب المديح السياسي لبنية التقليد والاحتذاء أكثر من غيره، فاعتمد الشعراء على البنيات النمطية التي رسخها الشعراء والنقاد المشارقة قبلهم. بينما برز التجديد والاجتهاد في قصيدة المديح النبوي عموما، وفي المولديات خصوصا، من خلال إضفاء أبعاد ثقافية وعاطفية وأخلاقية وتاريخية على القصيدة النبوية. وعبر الجمع بين الممدوح الديني والممدوح الدنيوي في القصيدة المولدية، مما تميز فيه المغاربة وأبدعوا خلاله على نطاق واسع جدا.

"وقد تلمّس -الشاعر- المغربي- عبر-عصوره- هذا-التحول
وذلك-التطور، فعمد-إلى-الجمع-بين-المديحين:-مديح
الرسول-عليه-الصلاة-والسلام-باعتباره-البطل-والمثال
والقدوة، ومديح-السلطان-باعتباره-الممارس-والمحقق
والداعي-لما-أمر-به-الرسول-الكريم، -ومن-ثم-كانت
استجابة-القصيدة-المولدية-للظروف-النفسية-والفنية
للقصيدة-المادحة-وكذا-للمناسبة-الدينية..."

****القصيدة المولدية بالمغرب.**

عبد الله بنصر علوي

تعريف الرثاء

- الرثاء بكاء الميت والتفجع عليه وإظهار الأسى والكآبة لفراقه،
- وسبيله "أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة، مخلوطا بالتلهف والأسى والاستعظام"
- الرثاء باعتباره غرضاً مستقلاً في الشعر العربي
- الرثاء لا فائدة ترتجى منه للشاعر إلا الوفاء ومشاركة أهل المراثي أحزانهم.
- في المغرب استطاع الشعراء الإبداع في هذا الغرض...

أسباب نشاط الرثاء

- طبيعة الظروف السياسية المتقلبة والارتجاجات التي عرفت بها بلاد المغرب،
- طبيعة الظروف الاجتماعية...
- حنين الشاعر المغربي إلى المشرق العربي وارتباطه به، لأنه امتدادٌ روحي ومعرفي.
- ارتباط الشاعر المغربي بالأماكن والمدن والزوايا، وتفاعله شعريا مع الأحداث المختلفة التي تتعرض لها.
- العلاقة الوطيدة بين الشعراء من جهة والفقهاء والكتاب والأمراء والملوك والسلاطين من جهة أخرى....
- تميز المغاربة بالنزوع الأخلاقي، حيث إن الشاعر غالبا يكون عالما وفقهيا، مما يجعل "الموت" موضوعا أساسيا لتفكيره،
- هذا النزوع الأخلاقي يقوي مشاعر الوفاء للإخوان والأهل والعلماء والشيوخ، وهو الأصل في غرض الرثاء...

رثاء الأشخاص

➤ ويشتمل هذا النوع من الرثاء على رثاء السلاطين والأمراء ورجال الدولة، ورثاء النفس، ورثاء الأهل، ورثاء العلماء والشيخوخ والإخوان...

➤ وفي رثاء النفس عُرفت قصيدة عبد يغوث لنفسه قبل موته، ومطلعها:

ألا لا تلوماني كفى اللومَ ما بيا *** وما لكما في اللوم خيرٌ ولا ليا

➤ وقصيدة مالك بن الريب في رثاء نفسه، ومطلعها:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً *** بجنب الغضى أٌزجي القلاصَ النواجيا

➤ ولم تبتعد مرثيات المغاربة والأندلسيين عن هذه الروح، التي كانت دائرة في الشعر العربي عموماً، حيث تتردد بنيات الندب، والتأنيب، والعزاء... وتنتشر عبارات التفجع والحسرة، والتأسف والاستعظام، وذكر عفة المرثي وشجاعته وعقله وكرمه، ثم الدعوة إلى الصبر والتصبير.

وللشيخ أبي عليّ اليوسفي يرثي زَاوِيَةَ الدِّلاءِ لَمَّا أَوْقَعَ بِهَا

السلطان مولاي رشيد العلوي سنة ١٠٧٨ :

أَكَلَّفُ جَفْنَ الْعَيْنِ أَنْ يَنْثُرَ الدَّرَا فَيَأْبَى وَيَعْتَاضُ الْعَقِيقَ بِهَا حَمْرًا
وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَكْتُمَ الْوَجْدَ سَاعَةً فَيُفْشِيَ وَإِنَّ اللُّومَ آوَنَةً أَغْرَى
وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَصْحِيهِ حَتَّى تَوَقَّدْتُ * جُذَا الْوَجْدِ فَاسْتَسْقَيْتُهُ يُطْفِئُ الْجَمْرَا
عَلَى أَنْ دَمَعَ الْعَيْنُ فَضْلُ حُشَاشَةٍ تُذَابُ فَمَاذَا يَنْفَعُ الدَّمْعُ أَنْ يُجْرَى